المرأة العربية

●

منذ خمس وتسعين سنة وقف الطيب الذكر بطرس البستاني على منبر الجمعية السورية والقى خطاباً موضوعه تعليم المرأة . وها قد قارب القرن ان يمر وحال المرأة العربية لا تزال كما كانت عندئذ إلا في بعض التفاصيل غير الجوهرية. تولد غير مرغوب فيها ، وتعيش غير مكرمة ، وتموت غير مبكي عليها. لا يزال الجهل مخيما على خبائها ، والحجاب مسدولا على جمالها ، ونير الرجل مشدوداً على عنقها ، وعقليته الفاسدة متحكمة فيها ، والخطباء ينادون بتحريرها ، ولله در من قال حاميها حراميها !

هذه هي حال المرأة في الجاهلية وفي الاسلام وفي الجاهلية الحديثة : جاهلية القرن العشرين .

هذه هي حال المرأة العربية في الجاهلية وشاهدنا على ذلك القرآن الكريم : « واذا بُشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون . »

وهذه هي حال المرأة العربية في الاسلام ، وشاهدنا على ذلك

---

(١) سورة النحل : ٥٨

ابو بكر الخوارزمي . خلف لنا الخوارزمي هـــذا مجموعة رسائل كتبها الى اصدقائه ومعارفه في اواخر القرن العاشر للميلاد فجاءت مرآة للمجتمع العربي آنئذ . وهاك ما قال في واحدة منها كتبها الى رئيس بهراة يعزيه بابن اختـــه وبنته . فبعد ان سكب الدموع مدراراً على الصبي وتلوع عليه نثراً وشعراً قال :

« اما البنت فرحمها الله تعالى رحمة تلحقهـــا بمريم وآسية في الاولين ، وبخديجة وفاطمة في الآخرين ، وبام الدرداء ورابعـة في نساء الصحابة رحمة الله عليهم (لا عليهن) اجمعين . ولولا ما ذكرته من سترها لكنت الى التهنئة اقرب مني الى التعزية ، فـــان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة فقـد استكمل النعمة ، واذا زف كريمته الى القبر ، فقد بلغ امنيته في الصهر ! » . قال احدهم :

ولم ار نعمة شملت كريمـــاً كنعمة عورة سترت بقـــبر

وقال الثاني :

تهوى حياتي واهوى موتها ابداً والموت اكرم نزال على الحرم

وقال ثالث :

وددت بنيتي ووددت اني وضعت بنيتي في لحـــد قبر

وقال الرابع :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنـات

ولم يكتف صاحبنا بما سبق بل كتب ثانية الى صديق يعزيه عن ابنة له فقال :

« واذا كان لا بد من عين تصيب طرفاً من اطراف الكمال ،

ولا بد من عوذة يعوذ بها وجه الجمال ، فلأن تكون الواقعة في الصغير خير من ان تكون في الكبير ، ولأن يقع سهم الزمان على النسوان،امثل من ان يقع على الذكران . فالحمد لله الذي جعل في طي المحنة منحة ، ومزج بالترحة فرحة » .

وهذه هي حال المرأة العربية في الجاهلية الحديثة،جاهلية القرن العشرين . وشاهدنا على ذلك شهادة العيان : انا ابو ليلى ولا ابدل ليلى بالف صبي . قطعت ليلى المحيط الاتلنتيكي في اثناء الحرب على متن باخرة في قافلة حربية . وقد هيأت لها الحكومة الاميركية جميع وسائل الراحة مع انها لم تتجاوز السبعة من الشهور سناً ، واجتازت المغرب الاقصى في طائرة سلكت طريقاً خاصة حتى لا ينال اذنيها الصغيرتين اذى من طبقات الجو العليا . ولما وصلت ليلى الى مسقط رأس والدها، وتوافد الاقرباء والاصدقاء والمعارف للسلام عليه وعلى شريكة حياته الاميركية ، تناولوا القهوة المعتادة. وبعد كل فنجان كانت ترتفع اصواتهم لا بالتهاني على سلامة الوصول بل بالتعازي . نعم بالتعازي ، لاننا لم نسمع سوى نغم واحد ولحن واحد تردد حتى بلغت النفس التراق . فمن صوت اجش يقول « بفرحة عريس ! » ، وآخر كحجر الرحى يطحن فينبعث عنه « ليجبر الله خاطرك بعريس ! » ، واخر كالببغاء « ان شاء الله ان يزينها بعريس ! » . والحق يقال ما كانت ليلى يوماً بحاجة الى زينة ، فهي زينة والديها وزينة البيت انى كان ، على الرغم من القول المأثور : كل يغني على ليلاه .

والشيء بالشيء يذكر ، فان الاقوال المأثورة المتداولة هي اجلى

مرآة لعقلية الشعب وثقافته . وما الثقافة الا ما يعمله الفرد والجماعات فطرة بدون تعمد . فها بعض ما تشتمل عليه ثقافتنا ويظهر من خلاله مركز المرأة في مجتمعنا : البنية بلية ، دور البنات خرابات ، البنات غلبات ، تكبر حية ولا تجيب بنية ، موت البنات سترة ، همّ البنات للممات ، موت البنات من المكرمات ، النسوان إلهم نص العقل ، بس بنت ، مثل المرا ، اجل شانك مرا ، اجل قدرك مرا !

واذا اضطر الرجل ان يذكر امرأته في الحديث ، فهي بنت عمه لا زوجته او شريكة حياته . فهو لا يشاركها راضياً الا التعب والتعساء .

هذا هو حال المرأة العربية اذاً في الادوار الثلاثة من ادوار بيئتنا . دور الجاهلية ودور الاسلام ودور الجاهلية الحديثة . ومن العدل ان اقول ان هذه البيئة قد انجبت في ادوارها الثلاثة نساء كريمات يفاخر بهن في كل قطر من اقطار العالم ، كالخنساء وخديجة واسماء ذات النطاقين وميسون ورابعة العدوية والباعونية وعائشة التيمورية ومي وصفية زغلول ام المصريين وغيرهن عديدات . وقد وصلنا ذكر لامرأة عربية مارست مهنة الطب هي زينب طبيبة بني أود . ولم تصلنا اخبارها على الارجح الا لما في ذلك من الشذوذ .

موضوعي اليوم تحرير المرأة ، وهو موضوع مبتذل لا يزال يطرقه الخطباء في بلادنا منذ قرن ونيف . ولا يزال خلاباً مثل المرأة نفسها وغامضاً مثل خفايا قلبها . وعندي ان اول سؤال يجب ان نسأله هو : بمن يجب ان تتحرر المرأة ومم ؟ وفي الاجابة على القسم

الاول منه جواب على الثاني .

ممن يجب ان تتحرر المرأة العربية؟ على المرأة العربية ان تتحرر من الرجل نفسه . فان جميع اتعابها وبلاياهـا وجهلها وتأخرها عن شقيقاتها في الاقطار الاخرى يعود الى الرجل المتسلط عليها ، والى عقلية الرجل التي تحيط بها . فهو الذي يحسبها مقراً للرذائل ومصدراً للخداع ،ويرى انها لم تخلق الا لقضاء شهوته وخدمة لذته . وما هي الا دمية يتعلل بها متى شاء ،ويلقيها جانباً متى شاء ،ويحطمها متى شاء.

ومن هو الذي يزجها في ظلمات البيت ، ويأبى ان ترى الشمس ـ شمس المعارف والعلوم ـ ويرفض ان تخرج الى المـــدرسة ، ويفرض عليها قوانين للعيش غير التي يتخذها لنفسه ، ويسدل على جمالها حجاباً من الظلمة وعلى روحها سبعين حجاباً ؟

الرجل مصدر جهلها وسبب بقائه . الرجل حافظ سجنهـــا ، وعقليته الفاسدة قيدها ، واهواؤه الشهوانية نيرهـا ، ولن تخرج المرأة من سجنها ولن تحل قيدها ، ولن تكسر نيرها ، ولن تقضي على جهلها الا بخروجها على الرجل ، الا بالثورة ضد استبداده !

وانا ادعو المرأة الى الثورة ، إلى الثورة الفكرية ضد عقليـة الرجل . وعقلية الرجل من المرأة كالنـــير الاجنبي من الشعب ، لا افلات منه الا بالثورة . فقد يستطيع الشعب المستقل مثـلاً ان يعالج قضاياه ومشاكله بالتطور والتدريج ، اما النير الاجنبي فـلا يخلع الا بالثورة. وقد تستطيع المرأة المتحررة ان تعالج أمورهـا بالتطور والتدريج ، أما المستعبدة اذا شاءت ان تتحرر فعليها ان تلتجىء الى العنف ، وان تخلع نير الرجل عن عنقها خلعاً .

ان حرية المرأة كحرية الشعب ، لا تأتي ولن تأتي هبة من المستعبدين ، بل تنتزع انتزاعاً . وقد اصبح بيناً بيان الشمس في رائعة النهار ان المفاوضات مهما تكن محكمة ، عقيمة في اصلها ، لن تنجلي عن جلاء ، جلاء الجنود او جلاء الرجال . فلتنتزع المرأة العربية عنها لباس الرضوخ ، ولتنفض غبار الطاعة ، لتحرر نفسها بنفسها ، ولتنتزع من قبضة الرجل استقلالها وحريتها !

ولا بد لكل حركة تحريرية من رمز او شعار او كلمة تتكهرب منها النفوس . وكما أصبح الحجاب رمزاً لتأخر المرأة العربية ، فليكن السفور رمزاً لتحريرها . أقول هذا لا لاني احسب الحجاب السبب في تأخر المرأة ، فالحجاب في حد ذاته لا يقدم ولا يؤخر ، وكم من امرأة سافرة أشد تأخراً واعظم عبودية من شقيقتها المتحجبة . غير ان الحجاب اصبح على مر الايام رمزاً لكل ما تنوء تحته المرأة من جهل وضعف واضطهاد واستبداد . وانتزاع الرمز لا يتعدى الخطوة الاولى في طريق الانقلاب . وهو سلبي في طبيعته ، ويتلوه من الواجبات الايجابية كثير . فالاستعاضة عن العلم المثلث الالوان مثلاً بالارزة الشامخة فوق الثلوج البيضاء تجري من حولها دماء الشهداء الحمراء ترمز الى انقضاء دور وبدء آخر . اما التبعات التي تقع على عاتق الشعب للسير في هذا الدور الجديد فهي عديدة ومستمرة . ولا بد من متابعتها اذا شئنا ان يكون للدور الجديد معنى او حقيقة .

فما هي الواجبات التي لا بد للمرأة العربية ان تتحملها بعد ان تعلن استقلالها وترفع من جمال وجهها رمزاً لحريتها ؟

قبل كل شيء على المرأة العربية ان تعين هدفها من حريتها ، ثم تقر الوسائل التي يجب ان تتخذها للوصول الى ذلك الهدف . اما الهدف فهو المساواة لا اقل ولا اكثر ، حتى تصبح الزوجة شريكة لا بنت عم ، والام مرشدة لا جارية ، والاخت شقيقة لا خادمة .

يجب ان تتساوى المرأة مع الرجل في الحقوق والواجبات الاجتماعية والمدنية والسياسية. يجب ان تساهم معه في مشاريع البناء والعمران ، وان تتحمل معه تبعة ما تقوم به من الاعمال . يجب ان تقاسمه مسئولية التهذيب والادارة ، وان تجلس الى جانبه على مائدة الحكم والنظام ، كما تجلس الى جانبه على مائدة الطعام .

يجب ان تسير معه في معترك السياسة كما تسير معه في مجتمعات اللهو والمؤانسة . يجب ان تشاطره السراء والضراء وتقاسمه الافراح والاتراح . يجب ان تكون شريكة حياته من المهد الى اللحد .

وعلى المرأة العربية حتى يتم لها هذا ان تتولى تربية اطفالها بنفسها ، فتزرع في قلوبهم وقار الام واحترام المرأة ومحبة الاخت وكرامة العائلة الصالحة . يجب ان تعلم اولادها معنى الاختلاط الاجتماعي الصحيح ، وان تكشف لهم عن حقيقة قلما ينتبه لها الرجال وهي ان المرأة مرآة للرجل . كل ما فيها من مساوىء ومحاسن وعيوب وجمال وشر وخير صادر عنه ومنبثق منه .

لا اشاء هنا ان اعدد حقوق المرأة وواجباتها ، ففي تعداد الامور تقليل من اهميتها وتعطيل لها عن جوهرها . وجوهر الامر هنا المساواة والمشاركة باوسع معانيها . فمتى اصبحت المرأة شريكة للرجل تفتح امامها جميع الابواب المفتوحة امامه ولا يوصد منها الا

ما ارصد في وجهه .

واود ان احذر المرأة من امر قد تتعرض اليه في سيرها نحو هدفها هذا : هدف المساواة والمشاركة . عليها ان لاتفقد في سعيها الى هذه المساواة رونقها ولطفها وجمالها ودلالها . واذا غالت المرأة في طلب المساواة وفسرتها تفسيرا ضيقاً فانها تفقد اعظم مما تكسب : تفقد انوثتها .

ولتحذر من ان تنصرف عن الجوهر الى العرض والمظاهر الخارجية . فالخروج الى مقاصف الرقص مثلا ، لا يضمن لها المساواة والمشاركة اذا لم تتغير عقلية الرجل ونظرته اليها . وكثيراً ما تكون المقاصف اشد خطراً على مركز المرأة وحريتها من مطبخها. ولا شيء يحفظ رِجلها عن الزلق على ارضها الا ثبات خطوتها وحسن درايتها وحكمتها .

فلتطلب المرأة المساواة والمشاركة ولتحتفظ بلطفها وانوثتها . قال احد المدافعين عن حقوق المرأة خلال خطاب شديد الحماسة ان لا فرق بين الرجل والمرأة سوى انوثتها . فرد عليه احدهم من بين الصفوف : ليعش ذلك الفرق ! وانا ارجّع قول هذا المجهول : ليعش ذلك الفرق !